مع الواقدي في فتوح الشام

الدكتور عزة النص

محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ – ٢٠٧ أو ٢٠٩ هـ) :

مُحدِّث وفقيه ومؤرّخ ، اشتغل بتجارة الحنطة في المدينة ، ولما أتلف ماله جوداً وسخاءً وفد الى بغداد واتصل بالوزير البرمكي يحيى بن خالد . وعيَّنه الخليفة الرشيد على القضاء بعسكر المهدي(١) ، وكان يكرم جانبه ويبالغ في رعايته(٢) .

ومن القصص المأثورة عن كرمه وحسن صلته بصحبه ما رواه المسعودي في مروج الذهب على لسان الواقدي نفسه(٣) ونقله أيضاً ياقوت وابن خلكان .

قال الواقدي :

« كان لي صديقان ، أحدهما هاشمي ، وكنا كنفسٍ واحدة ، فنالتني ضائقة شديدة ، وحضر العيد ، فقالت امرأتي : أمَّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة ، وأمَّا صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمةً لهم لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيَّنوا في عيدهم ، وأصلحوا ثيابهم ، وهم على هذه الحال من الثياب الرثَّة ، فلو احتلت بشيءٍ تصرفه في كسوتهم . قال : فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ بما حضر ، فوجَّه إليّ كيساً مختوماً ذكر أن فيه ألف

(١) وهو محلة الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد ، عمرها أبو جعفر المنصور لولده المهدي فنسب إليه .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، طبعة دار المأمون بالقاهرة ، الجزء ١٨ ، ص ٢٧٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الجزء الأول ، ص ٥٠٦ .
(٣) مروج الذهب على هامش نفح الطيب ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ، ١٣٠٢ هـ ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

درهم . فما استقرّ قراري حتى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي الهاشميّ ، فوجّهت إليه الكيس بختمه ، وخرجت إلى المسجد ، فأقمتُ فيه ليلتي مستحيياً من امرأتي ، فلما دخلت عليها ، استحسنت ما كان مني ولم تعنّفني عليه . فبينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته ، فقال لي : اصدُقني عمّا فعلتَه فيما وجّهتُ إليك . فعرّفته الخبر على وجهه ، فقال : إنك وجّهتَ إليّ وما أملكُ على الأرض إلا ما بعثتُ به إليك . وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجّه إليّ كيسي بخاتمي . قال : فتواسينا الألف أثلاثاً ، ثم إنا أخرجنا إلى المرأة قبل ذلك مائة درهم . ونمي الخبر إلى المأمون ، فدعاني فشرحت له الخبر ، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار ، لكل واحد ألفا دينار ، والمرأة ألف دينار » .

أما تصانيف الواقدي فقد عدّ منها ياقوت تسعة وعشرين أكثرها في التاريخ والمغازي ، ومن جملتها كتاب فتوح الشام .

كتاب فتوح الشام :

يعتقد كليمان هوار (١) أن شهرة الواقدي إنما هو مدين بها إلى الوضّاعين الذين انتحلوا باسمه قصصاً تاريخية عن فتح المسلمين لسورية والعراق ومصر وأفريقية ، وذلك كي يحفزوا همم المسلمين أثناء الحروب الصليبية ويبعثوا فيهم الروح الحربية بتذكيرهم عصر الفتوحات المجيدة .

وهكذا فان هوار ينكر نسبة كتاب فتوح الشام الى الواقدي دون أن يقيم الدليل على ذلك . وفي الحق إن القارئ لهذا الكتاب يلمس فيه طابع القصة الروائية ولا يجد فيه تلك المتانة في الأسلوب ، والجزالة في اللفظ ، والرصانة في العرض التي يجدها لدن مطالعة كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري ، أو كتاب فتوح البلدان للبلاذري ، وهذان المؤلّفان هما بعد أحدث عهداً من الواقدي ، وينحدران من أصل فارسي .

بيد أن هذا لا يؤلف حجة قاطعة على زيف كتاب فتوح الشام . ولعلّ مصنّفه قد آثر هذا النوع من الأسلوب ، أو هو غاية ما كان يستطيعه .

ثم ان عرض الحوادث التاريخية على مقاييس المنطق وتناولها بالنقد والتجريح ، وإثبات

(١) Clément Huart : Littérature arabe. A. Colin, 4e édit, , Paris, 1931, P. 175

ما هو معقول منها ونبذ ما سواه ، هي أمور لم يألفها القدامى من المؤرخين سواء العرب منهم أو الافرنج . فلا يسوغ لنا القول إذن بأن كتاب الواقدي موضوع لأنه يشتمل على قصص هي أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة . والمعروف أن النقد الظاهري — أي نقد سند الرواة — هو لدى سائر مؤرخينا أقوى من النقد الباطني ، أي نقد الموضوع ذاته . والطبري نفسه يعترف بذلك حين يقول في مقدمة تاريخه (١) :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره ... إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه ، دون ما أدرك بحجج العقول أو استنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ، ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قِبلنا ، وإنما أُتيَ من قِبل بعض ناقليه إلينا ، وإنا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا » .

ويجب أن ننتظر النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلاد حتى نجد مؤرخاً عربياً يضع القواعد العقلية للبحث التاريخي ، ألا وهو : عبد الرحمن بن خلدون ، الذي يقول في كتاب المقدمة (٢) :

« فهو محتاجٌ (أي فنّ التاريخ) إلى مآخذ متعدّدة ، ومعارف متنوّعة ، وحسنِ نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما الى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار اذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ، ولم تُحكَّم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً ، لم يعرضوها

(١) تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٣٩ ، الجزء الأول ، ص : ٥

(٢) المطبعة البهية بمصر . ص : ٧

على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط » .

ومما يؤسف له أن ابن خلدون نفسه قد وقع فيما نبّه اليه من خطأ ، والفصول من تاريخه المخصصة بأمم العالم القديمة مشحونة بالأساطير والأوهام .

ومهما يكن من أمر ، وسواء كان الواقدي هو مؤلف كتاب فتوح الشام ، أو كان ذلك من وضع غيره ، فان هذا الكتاب جدير بالدراسة والتمحيص ، لما فيه من معلومات غزيرة تفصيلية عن الفتح العربي لسورية لا نجدها في غيره من كتب التاريخ العربي .

ونحن إذ نعرض هنا بعض ما رواه هذا الكاتب ، فانما نشير بوجه خاص الى ما انفرد به دون غيره ، أو أسهب فيه ، أو أتى فيه بشيء جديد (١) . ولا يقف المؤلف عند فتح الشام فحسب ، بل يذكر أيضاً فتوح العراق ومصر .

الشام وسورية :

يزعم صاحب منجم العمران (٢) أن سورية « إقليم سمته العرب منذ افتتحته بلاد الشام » ، على أن ياقوت نفسه يستشهد بأشعار كثيرة قيلت قبل الفتح العربي ، وورد فيها اسم الشام دلالة على سورية (٣) .

وفي الواقع ليس بين جغرافي العرب ومؤرخيهم من يستعمل كلمة سورية بدلاً من الشام ، وهم كلهم لا يذكرون لفظ سورية إلا عندما يروون حديثاً على لسان هرقل أو أحد أعيان الروم ، وهم كلهم يوردون كلمة هرقل المشهورة في (وداع أرض سورية) حين غلبته جيوش المسلمين واضطرته الى ترك الشام والاعتصام بأرض بيزانس . فكأن لفظ سورية هو بالنسبة للعرب اسم الشام بلغة الأجانب .

---

(١) يقع الكتاب في جزأين بمجلد واحد يشتمل اولهما على ٢٥٢ صفحة والثاني على ٢٤٢ صفحة . وقد نشرته مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٩٣٤ .

(٢) منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان تأليف محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٠٧ ، الجزء الثاني ص ٢٤٥ .

(٣) معجم البلدان ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٠٦ ، المجلد الأول ص ٢١٧ – ٢٢٢ .

والواقدي قد أورد ذكر سورية في خمس مناسبات كهذه :

١ — بعدما افتتح المسلمون حمص والرستن وشيزر يقول هرقل لجمع من عظماء الروم : « واني قد عوّلتُ أن أصرف هذه الجيوش والعساكر الى بلادها وآخذ أهلي ومالي وأنزل من أرض سورية »[١] .

٢ — لما بلغ المسلمون تخوم أنطاكية « جمع هرقل الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب وقام فيهم خطيباً وقال : يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية ! قد قرُب ما حذرتكم به من زوال ملككم وذهاب عزّكم من أرض سورية »[٢] .

٣ — من قول أحد الروم عن هرقل : « وانهدت أركان ملكه من أرض سورية »[٣] .

٤ — من رؤيا لهرقل : « أنه رأى في نومه كأنّ شخصاً قد نزل من السماء وقلبه عن سريره ، وكأنّ تاجه قد طار عن رأسه ، وكأنّ شخصاً يقول له : قد قرُب ما بعُد وقد زال ملكك من سورية »[٤] .

٥ — يقول هرقل بعد خروجه الى القسطنطينية : « السلام عليك يا أرض سورية الى يوم اللقاء »[٥] .

ويتضح مما أورده الواقدي أن حدود الشام تنتهي عند الدروب ، أي مضائق جبال طوروس الموصلة الى قلب الأناضول[٦] . وهو لا يفرّق بين الشام وسورية في ذلك .

بينا يستنتج من رواية مضطربة للطبري أن سورية في عرف الروم هي القسم الغربي الأوسط من الشام ، فهو يقول من حديث لهرقل وجّهه الى عظماء الروم يطلب اليهم موافقته على مصالحة النبي العربي حين كتب اليه داعياً الى الاسلام : « فلأصالحْه على أن أعطيه أرض سورية ، ويدعني وأرض الشام . قال : وكانت أرض سورية أرض فلسطين والأردن دمشق وحمص وما

---

(١) ج ١ ، ص ١٢١ .
(٢) ج ١ ، ص ٢٣٨ .
(٣) ج ١ ، ص ٢٤١ .
(٤) ج ١ ، ص ٢٤٦ .
(٥) ج ٢ ، ص ٤ .
(٦) ج ٢ ، ص ٤ .

دون الدرب من أرض سورية ، وكان ما وراء الدرب(١) عندهم الشام . فقالوا له : نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرة الشام ، والله لا نفعل هذا ابداً . فلما أبوا عليه قال : أما والله لتروُنّ أنكم قد ظفرتم اذا امتنعتم في مدينتكم . ثم جلس على بغل له فانطلق حتى اذا اشرف على الدرب استقبل ارض الشام ثم قال : السلام عليكم ارض سورية تسليم الوداع »(٢) .

ويذكر ياقوت ان سورية « موضع بالشام بين خناصرة وسلمية » ثم يروي هزيمة هرقل فيقول : « وبلغه ان المسلمين قد بلغوا قنّسرين ، فخرج يريد القسطنطينية ، وصعد على نشز فأشرف على ارض الروم وقال : سلامٌ عليك يا سورية سلام مودّع لا يرجو ان يرجع اليك ابداً . ثم قال : ويحك ارضاً ما انفعك ، ما انفعك لعدوّك ، لكثرة ما فيك من العشب والخصب ... ثم مضى الى القسطنطينية »(٣) .

وياقوت نفسه يروي عن بعضهم ان الشام والعراق تسمى (سورستان) او (سوريان) ثم يعيد قصة هرقل ويستدل منها على ان (سوريان) هي بلاد الشام(٤) .

ويرى المسعودي ان سورية تشمل الشام والعراق فهو يقول : « والروم يسمون البلاد التي سكنها المسلمون في هذا الوقت من الشام والعراق سوريا . والفرس الى هذا الوقت تقارب الروم في هذه التسمية ، فيسمّون الجزيرة والعراق والشام (سورستان) اضافةً الى السريانيين الذين هم الكلدانيون ويسمون سريان ولغتهم سورية وتسميهم العرب النبط »(٥) .

وتخبط القدامى في تحديد كلٍ من سورية والشام هو ناجم عن خلطهم بين التعريف الطبيعي للبلاد والتعريف الاداري والسياسي لها . ولا لوم عليهم فنحن الى اليوم نقول سوريا ونقصد بها تارة سوريا بحدودها الطبيعية ، وتارة أخرى سوريا السياسية أو الجمهورية السورية . وفي الواقع لا تزال تسمية سوريا لغزاً لم يحله المؤرخون ، فمنهم من نسبه الى آشور ومنهم من أرجعه

---

(١) الدرب ممر كيليكيا . جاء في معجم البلدان : « وإذا أطلقت لفظ الدرب أردت به ما بين طرسوس وبلاد الروم ، لأنه مضيق كالدرب (المجلد الرابع ، ص ٤٨) .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٣) معجم البلدان ، المجلد الخامس ، ص ١٧١ .

(٤) المجلد الخامس ، ص ١٦٩ .

(٥) كتاب التنبيه والاشراف ، بغداد ، المكتبة العصرية ، ١٩٣٨ ، ص ١٥٠ .

الى مدينة صور . بيد أن حفريات رأس شمرا دلت على أن كُتّاب أوغاريت قبل أربعة عشر قرناً من الميلاد كانوا يستعملون كلمة (سرين) للدلالة على جبال لبنان الشرقية ؛ والعبرانيون سمّوا هذه الجبال نفسها (سيريون) كما سمّوا لبنان (ليانون) ؛ والبابليون كانوا يدعون المنطقة الشمالية من أرض الفرات باسم (سوري) (١) . وورد اسم (سريانا) الدال على جبال لبنان الشرقية في معاهدة ترجع الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقّعها الملك الحثي (شوبيلوليوما) مع تابعه الملك الآموري (عزيرو) (٢)

وعلى كل حال فان لفظ سوريا بمدلوله الشامل قد عُمّ في عهد السلوقيين ، واقتبسه عنهم الرومان . وفي عهد ديو قليسيان ثم قسطنطين قُسِّمت سورية إلى تسع ولايات ، واحتفظ الروم البيزنطيون فيما بعد بهذه التقسيمات الادارية . فاذا كان مؤرخو العرب وجغرافيوهم يحارون في تعريف سوريا ، فما ذلك إلا لأنها كانت ذات مفهوم جغرافي شامل ومفهوم إداري محدود . فمن الناحية الادارية كانت ولاية (سوريا الأولى) تشمل الوادي الأسفل للأرنُط (العاصي) مع انطاكية وتمتد شرقاً الى حلب ، وولايه (سوريا الثانية) كانت تضم أفاميا وحماة والرستن وشيزر . أما في الشمال الشرقي فكانت ولاية (الرُّها) تمتدّ حول منعرج الفرات الأعلى ، وكل ما يقع غرب الفرات في أقصى الشمال حتى سفوح طوروس كان يؤلّف ولاية (الفرات) . وباقي سوريا ينقسم الى (فينيقيا الأولى) على الساحل و (فينيقيا الثانية) في الداخل ، ثم (فلسطين الأولى) في الجنوب الغربي و (فلسطين الثانية) وراء الأردن . وكان يطلق على أقصى الجنوب اسم ولاية (فلسطين الثالثة) أو الولاية العربية .

القبائل النازحة :

يختلف الغزو الاسلامي عن غزوات المصريين والحثيين والفرس والرومان وغيرهم بأنه فتح استيطان لا فتح استثمار . فالمسلمون الوافدون من ديار العرب ، شأن جميع القبائل السامية التي خرجت من نواحي الجزيرة قبل العرب المسلمين قاصدةً أطراف الهلال الخصيب ، لم يكن استيلاؤهم على الشام ومصر والعراق استيلاءً سياسياً يرتكز الى وجود حامية عسكرية وبعض موظفين إداريين ، بل هو فتح نهائي يهدف الى تملك تلك البلاد والسكنى فيها دون رجعة .

(١) Philip K. Hitti - History of Syria, London, 1951, P. 57 - 58

(٢) Recueil Edouard Dhorme - Etudes bibliques et orientales, Paris, 1951, P. 139

فالواقدي يشير في مواضع كثيرة الى أن الفاتحين قد اصطحبوا معهم أموالهم ونساءهم وأولادهم يقيناً منهم بأنهم لن يعودوا الى وطنهم الأول (١) .

والمحاربون المسلمون الذين اشتركوا في الفتح ينتمون الى فرعي العرب : اليمنيين والعدنانيين . فمن الفرع الأول يعد الواقدي حمير ومذحج وطيء وأزد وعبس وكنانة (٢) . ومن القبائل الحجازية : كلاب ، طيء الشمال ، هوازن ، ثقيف ومخزوم (٣) .

وعدد هؤلاء المحاربين لم يزد حسب تعداد الواقدي عن خمسة وخمسين ألفاً ، جاء منهم سبعة وثلاثون ألفاً مع أبي عُبيدة ، وألف وخمسمائة مع خالد بن الوليد من العراق (٤) . وقبل وقعة اليرموك أرسل الخليفة عمر جيش إمداد مؤلف من ستة آلاف رجل من اليمن وحضرموت وألف فارس من مكة والطائف (٥) .

ويقول الواقدي بعد انتهاء حركة الفتح : « وتفرّقوا في البلاد والمدن ، ودانت لهم العباد ، وكل يوم يزدادون ، فلم يبق في الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم إلا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » (٦) .

واذا عددنا مع الجنود المحاربين نساءهم وأولادهم نستطيع أن نتكهّن تقديراً بأن العرب الوافدين الى الشام إبّان الفتح الاسلامي يتراوحون بين مائة ألف ومائتي ألف (٧) . فهم إذن قلة اذا قيسوا بعدد السكان الأصليين ، وهؤلاء يقدّرون في العهد الروماني بخمسة الى ستة ملايين (٨) .

والواقدي يردد اكثر من مرة أن العرب الفاتحين قطنوا المدن وعاشوا اسياداً من الفيء والجزية ، وأبقوا الفلاحين السوريين على حرث الأرض ، كي يكون هؤلاء — كما يروي الواقدي — عبيداً لهم ويعمروا الأرض والبلاد ، ويأخذ المسلمون خراجهم وجزيتهم (٩) .

---

(١) ج ١ ، ص : ٣ ، ١٦٩ ، ج ٢ ، ص : ١٤١ .
(٢) ج ١ ، ص : ٣ .
(٣) ج ١ ، ص : ٨ ، ٩ .
(٤) ج ١ ، ص : ٢٧ .
(٥) ج ١ ، ص : ١٣٧ .
(٦) ج ٢ ، ص : ٢٥ .
(٧) H. Lammens : La Syrie. Beyrouth, 1921, tI, p. 7
(٨) Eugène Cavaignac : La Paix romaine. Paris, 1928 p. 161
(٩) ج ١ ، ص : ٨١ .

ويبدو جلياً من مرويات الواقدي أن جنود المسلمين كانوا ينتظمون في القتال كل عشيرة تحت إمرة رئيسها، وتوزعهم على المدن كان وفقاً لهذا التنظيم. وهكذا استقر في بعض المدن السورية كحمص مثلا عشائر يمنية. واقام في البعض الآخر قبائل قيسية كحماه. والعداء الجاهلي بين القيسيين واليمانيين انتقل الى المدن المفتوحة بعد الاسلام. ولذا أرجع صديقنا الاستاذ (غولميه) التنافس السياسي والادبي القائم حتى اليوم بين سكان حمص وحماه الى التنافس القديم بين فرعي العرب (١).

عوامل الفتح:

قبل ان نتابع الواقدي في رواياته ونستخلص منها بعض العوامل التي ساعدت على الفتح العربي لسورية وغيرها من البلاد، يجدر ان نشير الى مختلف الآراء التي تتصل بهذا الموضوع.

لقد كان شعار الرسول والخلفاء الراشدين من بعده في سياسة التوسع ما كتبه الرسول نفسه إلى أهل اليمن: «مَن صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم، ذمة الله وذمة رسوله، ومن أبى فعليه الجزية» (٢).

فغاية المسلمين الأولى هي إذن نشر الاسلام في البلاد المفتوحة. ومما لا شك فيه أن هنالك عوامل عدة لها أثرها الكبير في تسهيل عملية الفتح، ولكن الغاية الموجّهة هي غير العوامل المساعدة...

كثيرون هم المؤرّخون المحدثون وعلماء المشرقيات من الغربيين الذين لم يروا في الاسلام هدفاً بذاته بل وسيلة لغايات قومية أو سياسية أو اقتصادية.

إن بعضهم ليجزم بأن الفتح الاسلامي لسورية لم يكن سوى حربٍ قومية هدفها الأول تحرير قسم من الأمة العربية خاضع لنفوذ الأجانب؛ وسوريا برأي هؤلاء قد تعرّبت قبل أن يدخلها الاسلام. يقول دوغويه (٣): لقد كان القسم الأكبر من سكان سوريا عرباً قبل

---

(١) Jean Gaulmier : Note sur un èpisode poétique de la rivalité séculaire entre Homs et Hama. Bulletim d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas, t. II, fas. 1, année 1932, p. 83

(٢) كتاب فتوح البلدان للبلاذري، الطبعة الأولى بالقاهرة، ١٩٠١، ص: ٧٦.

(٣) De Goeje : Mémoire sur la conqête de la Syrie. 2e éd. , Leide, 1900, pp. 1, 29 - 49

الفتح الاسلامي بزمن طويل ، وهذا الفتح لم يكن استيلاء على بلد أجنبي رغبة في الاثراء والاستثمار ، بل كان استرجاعاً لجزء من الوطن يرزح تحت النير الأجنبي ، واستعادة لعدد كبير من المواطنين .

وهكذا فان وجود عناصر عربية قديمة ضاحية في الشام والعراق جعل بعضَ المؤرّخين يظن دون تحقيق بأن هؤلاء العرب قد انحازوا إلى إخوانهم المسلمين الفاتحين ، وبذلك كانت عمليّة الفتح سهلة هيّنة (١) .

ويضيفُ مؤرّخون آخرون أن وحدة الدم بين العرب المسلمين والعرب السوريين كانت مقرونةً بتشابه العقائد الدينية . ومن المعروف أن سورية كانت مهدَ أكثر الهرقطات التي خالفت المذهب البيزنطيّ الرسميّ ، ومن المعروف أيضاً أن العرب الغسّانيين قد شجّعوا مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (Monophysisme) ودافعوا عن زعيمه السوري يعقوب البردعي ، الذي يُنسب اليه النصارى اليعاقبة ، أي السريان الأرثذوكس .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الشعائر الاسلامية لا تختلف في شيء عن الشعائر التي كانت متبعة في سورية قُبيل مجيء المسلمين . والأب فرانسوا نو يزعم أن الاسلام قد اقتبس أكثر مبادئه وعباداته عن النِّحَل المسيحية السائدة حين ذلك في الشام والعراق ، كعقيدة التوحيد ، والتزام الصوم ، وأداء الصلاة بعددها ومواقيتها وركوعها وسجودها الخ ...

وينتهي هذا المؤلّف إلى القول بأن العرب السوريين كانوا مهيّئين لقبول الاسلام ، وأن معظمهم التزموا جانب المسلمين إبّان الفتح ، وذلك لأن بعضهم كانوا مسلمين قلباً وغريزةً ، والبعض الآخر لمساندة إخوانهم في العرق ، ولغزو الروم واستلاب أموالهم (٢) .

ويدعي باحث غربي آخر (٣) أن الرسول أخذ عن الديانات المُوَحِّدة أصولها ومبادئها العامة عن سابق قصد وتعميم ، وذلك كي يأتي بديانة مواطأة من شأنها أن تجمع شتات العرب ، وتخلق صلةً مشتركة بين فروع الأسرة الساميّة . فالدين الاسلامي — في رأيه — كان منذ

(١) Ch. Bémont et G. Monod : Histoire de l'Europe au Hoyen - Age. Paris, 1921, t. I, p. 117

(٢) F. Nau : Les Arabes chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIe siècle au VIIIe siècle. Paris, 1933, pp. 18 - 25, 30, 130

(٣) P. J. André : L'Islam et Les races. Paris, 1922, pp. 101, 308

نشأته موسوماً بطابع سياسي ، وبدا كأنه تعبئة للعرب من أجل مقاومة الفرس والروم والأحباش .

وفي سبيل إلباس الدعوة الاسلامية لباساً قومياً سياسياً وتجريدها من نزعتها الأصيلة ، لم يتورّع بعض الباحثين عن القول بأن القرآن منقول عن أصول مسيحية . ومن هؤلاء (طور آندراي) الذي زعم أن الكتاب العربي مستقى من مواعظ (أفرام) الذي عاش في مطلع القرن الخامس الميلادي بين نصيبين والرّها ، تلك المواعظ التي كانت واسعة الانتشار في الشرق (١) .

أمّا كيف استطاع الرسول الاطّلاع على الديانات الموحّدة القديمة ليقتبس منها ، فيجيبنا عبد المسيح المقدسي (٢) بأن العهد القديم والعهد الجديد لم ينقلا للعربية كاملين إلا في بداية القرن التاسع أي في عصر المأمون ، ولكن مختارات منها قد ترجمت قبل البعثة المحمدية ، ثم ان التعاليم المسيحية كانت معروفةً من عرب الحجاز لصلاتهم الدائمة بعرب الشام واليمن الذين اعتنقوا النصرانية منذ أول عهودها ؛ يضاف إلى ذلك أيضاً أن المسيحيين المنشقين المضطهدين بتهمة الضلالة كانوا يجدون ملجأً أميناً في أرض الجزيرة العربية . وهذا الكاتب يقارن بين بعض سور القرآن وأسفار التوراة ، محاولاً الدلالة على التشابه في آياتهما .

هذه الآراء التي تجعل من الاسلام دعوة عربية قومية لا يركن إليها مؤرّخون آخرون ولا يؤمنون بصحتها . وسيتّضح لنا من قراءة الواقدي — وهو في ذلك متفق مع كافة المؤرخين المسلمين — أن العرب السوريين كانوا دائماً أشدّ أعداء المسلمين وأكثرهم حماسة في مناجزتهم ومحاولة ردّهم عن سورية .

إن الشعور القومي لا يمكن أن يكون له جذور عميقة في نفوس العرب قبل أربعة عشر قرناً ، فقد كانوا إذ ذاك في مرحلة التضامن القبَلي من تطوّرهم الاجتماعي ، ولم يبلغوا بعدُ مرحلة التضامن القومي .

ثم إن فتح العرب لمصر وإسبانيا لم يكن أشدّ صعوبة وأطولَ زمناً من فتحهم للشام ، ولم يكن بين سكان تلك البلاد عنصرٌ عربيٌّ يكون مظنّة الحفاية بالغزاة المسلمين والتشيّع لهم ومناصرتهم . وإذا كانت الغاية من فتوحات العرب المسلمين نصرةَ أبناء عمومتهم ، ولمّ

(١) Gaudefroy - Demombynes : Les origines de l'Islam d'après H. Tor Andrae. Revue des religions, tome XCVI, no 6, 1927, p. 344

(٢) ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغة العربية قبل الاسلام . مجلة المشرق ، بيروت ، كانون الثاني ١٩٣٣

شتات قومهم ؛ فلِم أمعنوا في التوسُّع شرقاً وغرباً بعد أن دانت لهم بلاد الشام والعراق ؟

وكيف يُعقل أن يخفّ المسلمون لنجدة إخوانهم من العرب السوريين ، فيدخلوا الشام لتحريرهم ورفع الاضطهاد البيزنطيّ عنهم ، ثم يجدوا أولئك الاخوان المضطهدين في الصفوف الأولى من الجيش البيزنطي ؟ ألا نقرأ في تاريخ ابن خلدون أن أول بعث ضخم وجَّهه أبو بكر إلى الشام بقيادة خالد بن سعيد بن العاصي قد اصطدم بجموع العرب الضاحية بالشام من بَهْرا وسَليح وكلب وغسّان ولخم وجُذام ؟[1].

ولم يكن عرب العراق في اصطراعهم مع المسلمين أقلّ اندفاعاً وإقداماً من عرب الشام[2].

ولو كانت خطة الفتح مرسومة على أساسٍ قومي عربي لنوّهت بذلك عهود الخلفاء ووصاياهم إلى أمراء جيوشهم ، أو أشارت إليه خُطب القواد بين المحاربين . وهذا عهد أبي بكر إلى المسلمين في جيش أسامة لا يشتمل على شيء من ذلك[3].

الحق إن دعوى الفتح القومي لا تستند إلى دعامة متينة أو شبه متينة ، فهل دعوى الفتح الاقتصادي هي أنأى عن الريبة وأوفر حظاً من الصواب ؟

عديدون هم المؤرّخون الغربيون والشرقيون الذين قالوا بأن الحافز الحقيقي الذي أخرج العرب من جزيرتهم في القرن السابع للميلاد لم يكن دينياً محضاً ، وإنما هو اقتصاديّ ماديّ قبل كل شيء . ولا ينكر هؤلاء الباحثون بأن الاسلام قد هدَف إلى توجيه سكان الجزيرة نحو مثلٍ روحي غاية في السمو ؛ ولكنه في الوقت ذاته قد استغلّ غرائزهم المنهومة وجعل منها قوةً توّاقة للتوسع وبسط النفوذ . إنه قد ألّف بينهم وجمع قلوبهم على عداوة مشتركة هي عداوة الكفّار ، وهو يعلم بأن الكفار يملكون ثروات عريضة من شأنها أن تغري أولئك العرب الجياع المملقين . فالجهاد لم يكن سبيلاً للمثابة الآجلة في الدار الآخرة فحسب ، بل هو وسيلة عاجلة للاثراء في هذه الدنيا .

يقول فيليب حتي : « وليس من شك في أن الاسلام جاء بشعار جديد التفّت حوله أقوام لم تجتمع من قبل ، وأن الدين كان أكبر عامل في خلق تلك الروح المتحفّزة التي أبداها

---

(١) طبعة القاهرة عام ١٩٣٦ ، ج ٢ ، ص : ٣٠٣

(٢) الطبري : ج ٢ ، ص : ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١

(٣) الطبري : ج ٢ ، ص : ٤٦٣

المسلمون . ولكن ذلك ليس كافياً وحده لتعليل الفتوحات . فكثرة الجيوش العربية كانت تتألف من البدو الذين خرجوا من ديارهم المجدبه إلى الأمصار الخصبة في الشمال بدافع الحاجة الاقتصادية لا بدافع الغيرة على الدين . ولعل منهم من كان يحلم بالجنة ونعيمها . إنما الكثير منهم يحلم بالتمتع بخيرات حضارة الهلال الخصيب ونعمها ، على ما كانت الحال مع القبائل السامية الأخرى من قبلهم . فالتوسع إذاً كان آخر حلقة من حلقات الانسحاب التدريجي من الصحراء المجدبة إلى الهلال الخصيب الملاصق ، أي آخر هجرة سامية كبرى (١) » .

ورنه دوسُّو هو أسبق من فيليب حتي في القول بأن الهزّة التي ضعضعت صفوف الروم في اليرموك وامتدّت من ثَمّ إلى وسط آسيا شرقاً وقلب إسبانيا غرباً كانت مرحلة متمّمة لمراحل سابقة (٢) . ولكن حتي يخصّ الأعراب — وهم أداة الفتح الأولى — بفهم الجهاد فهماً أدنى إلى المصلحة المادية المباشرة ، وليس من ينكر عليه بأن الشعور الديني في قلب البدوي كان ولا يزال سطحياً (٣) . وقد عاش فيكتور مولر سنوات عدة بين البدو السوريين ووصفهم بأنهم بعيدون عن الدين والتقى ، وأن الذين شاركوا منهم المؤمنين في الفتح لا يبعد أن يكون نصيب الرغبة في الربح كان يعدل لديهم نصيب الايمان المحض (٤) . وفي هذا المعنى يقول برترام توماس : إذا كانت الحماسة الدينية الخالصة تجد في مكة والمدينة سبباً دينياً أو سياسياً للحروب ، فان البدو الذين قامت هذه الحروب على كواهلهم كانوا مدفوعين — دون ريب — بعوامل إيجابية (٥) . وهو يضيف : نحن لا نستطيع الاعتقاد بأن البدو كانوا مسلمين ورعين يخشون ربهم كما كان يخشاه صحابة الرسول ، بل كانوا عصابات من الغزاة النهّابين ، لم يُخلصوا للدولة الجديدة إلا على أساس المنفعة الشخصية (٦) . ويذهب المؤلف ذاته إلى أبعد من ذلك ، فيجزم بأن العوَز والحاجة هما اللذان دفعا بالعرب إلى الحرب واجتياح العالم ، شأنهم في ذلك شأن سائر الساميين السابقين . ولمّا جاء الاسلام وحرّم قتل الأولاد ، وأبطل الغزو الداخلي

---

(١) العرب ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص : ٥٩

(٢) René Dussau : Les Arabes en Syrie avant l'Islam. Leroux, Paris, 1907, p. 2

(٣) العرب ، ص : ١٦

(٤) Ct Victor Müller : En Syria avec Les Bédouins. Leroux, Paris, 1932, p. 243

(٥) Bertram Thomas : Les Arabes (traduction R. Huret) Payot, Paris, 1946, p. 59

(٦) P. 60

قضى بذلك على المنفذ التي كانت تخفيف من وطأة الضغط البشري ، وبالتالي بدا أمراً لامناص منه فتح بلاد جديدة ذات موارد غنية (١)

وسببٌ آخر يورده القائلون بمادية الفتح الاسلامي ، وهو أن عرب الحجاز كانوا قوماً تجاراً يعيشون مما تدرّ عليهم أسفارهم بين الشام واليمن . فلمّا ضعُفت الدولتان الفارسية والبيزنطية على أثر حروبهما الطاحنة ، طمع العرب في الاستيلاء على البلاد ذاتها التي تجلب إليهم تلك الموارد . وهم على كل حال سيصيبون الفيء والغنائم ويتوزعون الجزية والخراج .

وقد يُظن أن التعليل الاقتصادي للفتوحات الاسلامية إنما جاء به المؤرّخون المحدثون لغرض في انفسهم . ولكنهم في الواقع قد اعتمدوا على حوادث ونصوص مأخوذة من كتب التاريخ الاسلامي الشهيرة ، وخطأهم هو في بعض المبالغة والتعميم .

وهل من حاجة إلى استعراض تاريخ المغازي وذكر تنازع بعض المسلمين على الغنائم والأنفال في بدر وأحُد ؟ (٢) .

ألم يذكر البلاذري أنه « لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش إلى الشام ، فكتب إلى أهل الشام والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغّبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع » ؟ (٣)

ويروي الطبري في فتح العراق وفارس : « قام خالد في الناس خطيباً يرغّبهم في بلاد العجم ، ويزهّدهم في بلاد العرب . وقال لهم : ألا ترونْ الى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عز وجل ، ولم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع عن هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والإقلال من تولاّه ممّن أثاقل عمّا أنتم عليه »(٤) .

وقبل فتح مصر يكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر : « يا أمير المؤمنين ! تأذنُ لي في أن أصير الى مصر ، فانّا إن فتحناها كانت قوةً للمسلمين ، وهي من أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزه عن القتال »(٥) .

(١) pp. 56 - 57
(٢) انظر الطبري ، ج ٢ ، ص : ١٥٦ – ١٥٧ ، ١٩٣ – ١٩٤
(٣) فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٠١ ، ص : ١١٤ .
(٤) ج ٢ ، ص : ٥٥٩ .
(٥) تاريخ اليعقوبي ، النجف ، ١٩٣٩ ، ج ٢ ، ص : ١٢٥ .

ويظهر ان بعض البُداة من الفاتحين المسلمين كانوا من السذاجة والفقر أنهم لا يعرفون الخبز الرُّقاق ؛ فقد أتوا على موقع قرب الفرات واستولوا على طعام مصنوع ، وقعدوا عليه لعشائهم ، و « جعل من لم ير الأرياف ، ولا يعرف الرُّقاق يقول : ما هذه الرقاع البيض ؟ وجعل من قد عرفها يجيبهم ويقول لهم مازحاً : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم . فيقول : هو هذا ... » (١)

وسنرى الآن أن الواقدي ، كغيره من المؤرخين المتقدمين ، لا يغفل عن الحوافز الروحية في الفتوحات الاسلامية ، ولكنه لا يتحاشى أيضاً ذكر الدوافع المعاشية التي وردت على لسان الفاتحين أنفسهم ، أو عزاها اليهم مناجزوهم .

الواقدي والفتح الاقتصادي

١ — عندما اتّصل بهرقل مسير المسلمين نحو الشام ، جمع بطاركته في عسكره وقال لهم : « ... وقد بعث إليكم ربكم قوماً لم يكن في الأمم أضعف منها عندنا ، وقد رمتهم شدة الجوع إلينا ، وأتى بهم الى بلادنا ، وبعثهم صاحب نبيّهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا » (٢) .

٢ — من حديث بين القائد جرجيس وخالد بن الوليد . قال جرجيس : « ... وكذلك أنتم تتهاون بأمركم لأنه ما كان أضعف منكم ، لأنكم جياع مساكين ضعفاء ، وتعوّدتم أكل الذرة والشعير ومصّ النوى . فلما خرجتم الى بلادنا ، وأكلتم طعامنا ، وفعلتم ما فعلتم ... » فأجابه خالد :

« ... وأمّا ما ذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالأمر كذلك ، إلا أن الله تعالى أبدلنا ما هو خيرٌ منه ، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل . وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه . وأما قولك : ما الذي تريدونه منّا ؟ فنريد منكم إحدى ثلاث خصال : إما أن تدخلوا في ديننا ، أو تؤدّوا الجزية ، أو القتال ... » (٣)

٣ — يكتب هرقل الى قائده وردان : « قد بلغني أن جياعَ الأكباد عراةَ الأجساد قد هزموك ... » (٤)

---

(١) الطبري ، ج ٢ ، ص : ٥٦٢ .
(٢) ج ١ ، ص : ٥ .
(٣) ج ١ ، ص : ٢٤ .
(٤) ج ١ ، ص : ٣٣ .

٤ — من كلام وردان لخالد بن الوليد : « يا خالد ! اذكرْ لي ما الذي تريدون ، وقرّب الأمر بيني وبينكم ، فإن كنت تطلب منا شيئاً لا نبخل به عليك صدقةً منا عليكم ، لأننا ليس عندنا أمة اضعف منكم ، وقد علمنا انكم كنتم في بلاد قحط وجوع تموتون جوعاً ، فاقنع منا بالقليل وارحل عنا » فلمّا سمع منه خالد هذا الكلام قال له : يا كلب النصرانية ! إن الله عز وجل أغنانا عن صدقاتكم وأموالكم ، وجعل أموالكم نتقاسمها بيننا ، وأحلّ لنا نساءكم واولادكم ، إلا ان تقولوا : لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، وإنْ ابيتم فالحرب بيننا وبينكم ، او الجزية عن يد وانتم صاغرون »(١) .

٥ — بلغ المسلمين قبل واقعة اليرموك ان الروم يتأهّبون للقائهم بجيوش ثقيلة ، فداخلهم الجزع ، ووقف قائدهم أبو عُبيدة يستمدّ منهم الرأي ، « فقام إليه قيس بن هبيرة المرادي وقال : يا امير المؤمنين ! لا ردّنا الله الى اهلنا سالمين إنْ خرجنا من الشام ، وكيف ندع هذه الأنهار المتفجّرة والزروع والأعناب والذهب والفضة والديباج ، ونرجع الى قحط الحجاز وجدبه ، وأكل خبز الشعير . ولباس الصوف ، ونحن في مثل هذا العيش الرغد ؟ فان قتلنا فالجنة وعدُنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا . فقال ابو عبيدة رضي الله تعالى عنه : صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق . ثم قال : يا معاشر المسلمين ! أترجعون الى بلاد الحجاز والمدينة ، وتدعون لهؤلاء الأعلاج قصوراً وحصوناً وبساتين وانهاراً وطعاماً وشراباً وذهباً وفضة ؟ »(٢) .

٦ — من حديث ماهان لخالد : « ... وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون رائدنا ورفدنا وجوائزنا ونحن نحسن إليهم ونكرمهم ونكرم ضعيفهم ونعظّم قدرهم ونتفضّل عليهم ونفي لهم بالوعد ، وكنا نظنّ ان العرب كلّها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لِما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم ، فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل والرجل ، وظننا انكم تطلبون منا طلب إخوانكم ، فاذا انتم على خلاف رأي أولئك : جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الأموال وتهدمون الأطلال وتطلبون ان تخرجونا من ارضنا وتغلبونا على بلادنا ، .... وانتم لم يكن في امة من الأمم اصغر منكم مكاناً ولا احقر شأناً لأنكم اهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء .... وإنما اقبلتم علينا لأنكم خرجتم من جدوبة الأرض وقحط

---

(١) ج ٢ ، ص : ٤٦ .
(٢) ج ١ ، ص : ١٢٣ .

المطر فالجئتم الى بلادنا وافسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمراكبكم ولبستم ثياباً ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم الأوانس فجعلتموهن خدماً لكم واكلتم طعاماً ليس كطعامكم وملئت أيديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، وقد لقيناكم الآن ومعكم أموالنا وما غنمتموه من قومنا واهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم ، والآن فاخرجوا من بلادنا ... »(١)

٧ — من جواب خالد لماهان : « ... واما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الابل والشاة فما منّا من لم يرعَ وأكثرنا رعاة ، ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرعَ . واما قولك بأننا اهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء ، فنحن لا ننكر ذلك ، وإنما ذلك من اجل انّا معاشر العرب انزلنا الله تعالى منزلاً ليس فيه انهار ولا اشجار ولا زرع إلا قليل ، وكنا اهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منّا إلا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه ، ويأكل قويّنا ضعيفنا ... »(٢)

٨ — من كلام عمرو العاص الى ابن هرقل [ويسميه الواقدي فلسطين] : ايها الملك ! امّا ما زعمت ان الجهد اخرجنا من بلادنا ، فنعم ، كنا نأكل خبز الشعير والذرة ، فاذ رأينا طعامكم واستحسنّاه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من ايديكم وتصيروا لنا عبيداً ونستظل تحت اصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار ، فان منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش ، فما عندنا إلا رجالاً اشوقُ الى حربكم من حبكم الحياة ... »(٣)

٩ — من كلام كسرى لما تقدم العرب في فتح العراق : « ... إن هؤلاء العرب قد اخرجهم الجدب والجهد ، فهم ينظرون مواضع يسكنون اليها وينزلون فيها ... »(٤) .

١٠ — بولص يحدّث خالد بن الوليد : « ... وقد علمنا انكم كنتم في بلادكم قبل ان تفتحوا البلاد في قحط وجوع وتموتون هزالاً ، وقد ملكتم بلاداً ، وشبعتم لحماً ، وركبتم خيولاً مسوّمة ، وتقلّدتم بسيوف مجوهرة ، وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم ، فان طلبتم منّا شيئاً اعطيناكم إيّاه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا في بلادنا كما طمعتم في غيرها واقنعوا منّا بالقليل »(٥) .

---

(١) ج ١ ، ص : ١٤٢ ، ١٤٣
(٢) ج ١ ، ص : ١٤٤
(٣) ج ٢ ، ص : ١٤ — ١٥
(٤) ج ٢ ، ص : ١٤٠
(٥) ج ٢ ، ص : ١٨١

١١ — من كلام أحد البطارقة في مصر لجرير الحميري : « ... لمَ تركتم بلاد الشام والنعم العظام ، وأتيتم الى هذه البلاد ؟ وكنتم في بلاد الحجاز تقاسون جوعاً وعرياً ... »(١)

جواب جرير : « ... أما قولك : كنا في ضيق حال ، فهو كما ذكرت ؛ ولكن الله أنعم علينا بالاسلام ، وهو أول نعمة ، ثم أمرنا بالجهاد ، وأن الله تعالى أباح لنا أموال المشركين ما داموا محاربين ... »

١٢ — البطليوس يتحدث الى عبد الله المغيرة : « ... وقـــد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون الى بلادنا فيمتارون البُرّ والشعير وغيره ، ونحسن اليهم ، وكانوا يشكروننا على ذلك ، وأنتم جئتم بخلاف ذلك : تقتلون الرجال ، وتسبون النساء ، وتغنمون المال ، وتنهبون المدائن والحصون والقلاع ، وتريدون أن تخرجونا من بلادنا وديارنا ، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أضعف حالاً منكم لأنكم أهل الشعير والدُخن ! وجئتم بعد ذلك تطمعون في بلادنا وأموالنا ؟ ... والذي جرّأكم علينـــا أنكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم الى بلادنا وأفسدتم كل الفساد ، وخرّبتم المدائن والقلاع ، ولبستم ثياباً فاخرة ، وتعرّضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خدماً لكم ، وأكلتم طعاماً طيباً ما كنتم تعرفونه ، وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر ... »(٢) .

جواب المغيرة : « ... وأما قولك لنا أنّا أهل فقرٍ وبؤس وضرّ ، فقد كنّا كذلك ، وكنّا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وقوسه وإبله ... »(٣) .

سكان الشام وموقفهم من الفاتحين المسلمين :

ولا نجد على الواقدي مأخذاً ما في تصنيفه للشعوب التي كانت تعمُر الديار الشامية ، فهو قــد استطاع التمييز بين الأصليين منهم والطارئين ، وأحسنَ التفريقَ في الجنس واللغة بين سكان المدن وسكان الأرياف .

فالسوريون منذ استقر الساميون تباعاً في الهلال الخصيب ، لم يداخلهم عنصرٌ غريب استطاع أن يفرض لغته عليهم أو يذيب خصائصهم القوميــة ، بل على العكس ، نجد أن اللغة السامية

(١) ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
(٢) ج ٢ ، ص ٢١٢ .
(٣) ج ٢ ، ص ٢١٣ .

الآرامية تصبح — منذ أواخر القرن السابع قبل الميلاد — اللغة السائدة في كافة ربوع الشرق الأدنى (١) .

ولم يغيّر الحكم المقدوني من هذا الوضع شيئاً ، فالاسكندر إنما أنشأ أمبراطورية ذات وحدة عسكرية ولم تكن غايته تأسيس مستعمرات هيلينية مستقرة ، وهو لو شاء ذلك لما وجد العدد الكافي من المستعمرين لقلة عدد مواطنيه . وهكذا لم تتأثر وحدة الساميين إبّان حكمه (٢) .

والسلوقيون قد وحّدوا سورية سياسياً ، ولكن حكمهم لها كان شخصياً ، ولم يكن هناك شعب سلوقي أو قومية سلوقية (٣) . وظلّ سكان سورية غرباء عن ملوكهم ، او بالأحرى كان الملوك السلوقيون هم الغرباء عن الشعب السوري السامي . لا ريب أن هؤلاء الملوك كانوا شغفين ببناء المدن ، وقد أسكنوا فيها بعض الجاليات المقدونية والهيللينية من الصنّاع والتجار (٤) ، ولكن الأرياف السورية بقيت ساميّة لم تشبها عجمة ، وحتى في المدن الجديدة لم يكن الاغريقيون من الكثرة بحيث يظهرون على السكان المحليين (٥) .

يستشهد الأستاذ كوهن بالمؤرخ تيت — ليف الذي يشبّه المدن السورية آنئذ بجزر يونانية تضربها أمواج بحر بربري . ولكنه يبادر الى التعقيب عليه قائلاً : يجدر أن نحذر المبالغة في تأثير الحضارة الهيللينستية ، فالشعوب الساميّة قد احتفظت بلغتها وعاداتها ، ولم يتأثر بالهيللينية سوى نخبة محدودة (٦) . ومن خلال النصوص التي جمعها الأستاذ الدكتور جورج حدّاد عن تاريخ سكان انطاكية يمكن الجزم بأن السوريين قد وجدوا في المدينة طوال جميع الأدوار التي مرّت بها الى جانب الأيونيين والكريتيين والقبرصيين والمقدونيين واليهود وغيرهم (٧) .

---

(١) A. Dupont - Sommer : Les Araméens. Maisonneuve, Paris, 1949, p. 89

(٢) P Jouguet : L'impérialisme macédonien et l'héllènisattion de l'Orient. Collection l'Evolution de l'humanité, Paris, 1929, p 87

(٣) E. Bikermau : Institutions des Séleucides. Geuthner, Paris, 1938, p. 11

(٤) P. Jouguet, op. cit. p. 425 - 426

(٥) Rebert Cohen : La Gréce et l'hellénisation du monde antique. Collection Clio, Paris, 1939, p. 426

(٦) 1d. p. 451 - 452

(٧) George Haddad : Aspects of social life in Antioch in the hellenistic - roman period. Chicago, 1949, pp. 38 - 67

ولم يكن حكم الرومان والبيزنطيين لسورية سوى استمرار للعهود السابقة من النواحي القومية واللغوية والاجتماعية . فاليونانية واللاتينية كان يتكلمهما صفوة مختارة من المثقفين في المدن ، ولكن اللهجات السامية كانت سائدةً في الحياة اليومية ، وظلّت الآرامية اللغة الأساسية لجميع سكان الهلال الخصيب (١) .

والواقديّ يشير في كل موضع من كتابه الى أن المسلمين وجدوا في المدن السورية بعض من يتكلمون الرومية ؛ ولكنهم في غالب الأحيان كانوا يسمعون لغةً قريبة من لغتهم — وخاصة في الأرياف — وهي الآرامية — النباطية .

فكاتبنا يتكلم عن طوائف أربعة كانت موجودةً في سورية حين الفتح الاسلامي وهي :

١ — « الروم » الذين لقيهم الروم في بعض الحواضر ، وهم يحتلون مناصب الحكم الرئيسية في البلاد مدنية كانت او عسكرية ، ومنهم بعض كبار رجال الدين ، وبعضهم يحسن اللغة العربية وقد تعلمها للضرورات الادارية التي يقتضيها وجود رعايا من العرب السوريين .

٢ — « العرب المتنصّرة » وجلّهم ضاحون عند التقاء البادية بالمعمورة وبعد اندحار البيزنطيين في الشام ينخرط الكثير منهم في جيوش الروم المعسكرة بمصر ، ويفرّ بعضهم الى بيزانس . وأشدهم عداوة للفاتحين هم الغساسنة الذين تؤجرهم بيزانس بسخاء وتجعلهم على المقدّمة من جيش الدفاع امام الفرق الارمنية . واقل من الغسّانيين ضراوةً في مقاتلة المسلمين هم العرب التغلبيون ومقامهم في ارض الجزيرة العليا .

٣ — « الانباط » والواقدي يعني بهم فلاّحي سورية من الآراميين .

٤ — « النصارى » وهو الاسم الذي يطلقه الواقدي على سكان المدن السورية .

وهؤلاء الانباط والنصارى — كما يستنتج من قراءة الواقدي — لم يكونوا مندفعين في محاربة المسلمين ، بل يبدو انهم كانوا مرتاحين لمقدم هؤلاء الفاتحين راضين بسلطانهم املاً في التخلص من أسيادهم البيزنطيين الذين كانوا يمعنون في ارهاقهم .

والكثرة منهم كانت ترتبط بموثق مع المسلمين ؛ فهم يدخلون في ذمتهم وامانهم دون ان يغيروا من دياناتهم ؛ وهؤلاء هم « المعاهدون » الذين كانوا للمسلمين ادلاء وعيوناً وتراجمة .

(١) René Grousset : L'empire du Levant. Payot, Paris, 1949, p. 50

وفي الحق ان الوضع الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية البيزنطية كان على الجملة في صالح المسلمين . فقد كانت الدولة في مطلع القرن السابع للميلاد تتخبط في صعوبات خارجية وداخلية . أما في الخارج فالحرب لاتخبو نارها مع الفرس (١) . وفي الداخل كان بيت المال خاوياً والثورات والفتن متلاحقة متتالية .

ولا عجب اذن ان يكون سكان المدن ساخطين ناقمين يشكون غائلة الحروب وفداحة الضرائب . وأشد سخطاً منهم هم الفلاحون الذين كانوا يرزحون تحت نير الاقطاعيين . والاقطاعية اشتدت ونمت مع ضعف الدولة وانحطاطها واشتد معها بؤس عمال الارض (٢)

وكان هرقلُ على شيءٍ كثيرٍ من سَداد الرأي والحزم ، ولكنّ الوقت لم يسعفه لرأب المصَدّع وتقويم الاختلال . وجاء الاسلامُ يحمل الحرية للفلاّحين المغلوبين على أمرهم ، ويوطّد الأمن ، ويدعم النظام ، ويخفّف الضرائب ليطمئنّ أهل المدن على أموالهم وتجاراتهم ، فكيف لا يجدُ هؤلاء وأولئك مقوّماً لما اضطرب من أمورهم ؟!

فاذا كان هنالك تواطؤٌ بين الفاتحين المسلمين وأهل الشام ، فمع السكان المحليين لا مع العرب المستأجرين لبيزانس كان هذا التواطؤ .

يعلمنا الواقديُّ أن العرب السوريين كانوا معروفين من جميع سكان سورية ، ولذا كان المسلمون « يلبسون زيّ لخم وجُذام » اذا أرادوا التغرير بأعدائهم ، أو الاستيلاء بغتةً على معقلٍ منيع (٣) . وبالمقابل كان للروم في عسكر المسلمين عيونٌ وجواسيس من العرب المتنصرة يأخذون لهم الأخبار (٤) .

---

(١) هزم الفرس البيزنطيين في سورية وفلسطين قبيل الهجرة الا ان هرقل اجلاهم عنها ، وكانت اخبار هذه الحروب تبلغ اسماع العرب في الحجاز . وكان المشركون يودون غلبة الفرس على الروم لان الفرس كانوا مجوساً ، والمسلمون يودون ان يتغلب البيزنطيون لانهم كانوا اهل كتاب . وقد اشار القرآن الى ذلك في مطلع سورة الروم : (الم ، غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غَلبهم سيغلبون . في بضع سنين) .

(٢) Charles Diehl - Histoire de l'empire byzantin. Picard, Paris, 1934, p. 44 — 45;
Charles Diehl et Georges Marçais : Histoire du Moyen - Age, Presses Univer-
sitaires de France, Paris, 1944, t. III, pp. 134 - 141

(٣) ج ١ ، ص : ٦٠ ، ٨٨ .

(٤) ج ١ ، ص : ١١١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ج ٢ ، ص : ١٢ ، ٢٢٩ .

إلا أن عرب سورية قد أفادوا الروم خاصة كمحاربين أشداء وكأدلاء خبيرين . وهكذا يفيدنا الواقدي بأن الروم في بداية الفتح ساروا للقاء المسلمين و « أمامهم العرب المتنصرة يدلونهم على الطريق »(١) ، وأنه عندما وفد عمرو بن العاص الى فلسطين وافته الأخبار بأن العرب المتنصرة يتناهدون لقتاله و « جنودهم مثل النمل »(٢) .

واستبسل الغساسنة خاصة في حرب المسلمين ، ويصفهم الواقدي بأن « في أعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح »(٣) ، وأن سيدهم جبلة بن الأيهم « يجلس على كرسي من ذهب أحمر ، وعليه ثياب الديباج الرومي ، وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ ، وفي عنقه صليب من الياقوت »(٤) . وتكاد لا تجري موقعة بين المسلمين والروم في سورية إلا وغسان ولخم وجذام مشتركة فيها(٥) . وحتى في مصر كانوا في صفوف البيزنطيين(٦) . وما انفك جبلة بن الأيهم يحرض هرقل على أخذ المسلمين بالشدة والعنف ، فهو يقول له : « يا عظيم الروم ! أنا لا أقدر على الصبر ولا بد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم »(٧) . ويبلغ به الحقد أن يقترح على القيصر إرسال رجل من غسان ليقتل الخليفة عمر بالمدينة(٨) .

ويذكر لنا الواقدي في موضع آخر أن سيد الغساسنة كان يتبعه في وقعة اليرموك « ستون ألف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد »(٩) . ويقول لهم هرقل : « كونوا في المقدمة فان هلاك كل شيء بجنسه ، والحديد لا يفله إلا الحديد »(١٠) . ولما كان أكثر هؤلاء العرب

---

(١) ج ١ ، ص : ٥
(٢) ج ١ ، ص : ١١
(٣) ج ١ ، ص : ٨٦
(٤) ج ١ ، ص : ٨٧
(٥) ج ١ ، ص : ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ - ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢
(٦) ج ٢ ، ص : ٦٦ ، ٦٩ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٥
(٧) ج ١ ، ص : ٢٤٠
(٨) ج ١ ، ص : ٢٣٨
(٩) ج ١ ، ص : ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤
(١٠) ج ١ ، ص : ١٢١

السوريين يفهمون الرومية (١) ، فقد كان يُعهد إليهم أحياناً أمر الترجمة بين المسلمين والروم ، ويُكلفون بمهامّ الرسل والمفاوضين (٢) ، وكثيراً ما كان يُطلب إليهم استغلال صفتهم العربية أو صلتهم القبلية لنصح أبناء عمومتهم الفاتحين وثنيهم عن الاستمرار في الفتح ، لأن « العرب يميل بعضهم إلى بعض » (٣) . وهكذا يدخل جبلة في مفاوضة مع المسلمين قُبيل معركة اليرموك ، وينقل لنا الواقديّ قصة هذه المفاوضة فيقول (٤) :

« ... دعا ماهان (رئيس جبلة المباشر وزعيم الفرق الأرمنية) بجبلة بن الأيهم الغساني وقال : ياجبلة اخرج الى هؤلاء وخوّفهم من كثرتنا وتواتر عددنا وألق في قلوبهم الرعب وأحط بهم مكرك . قال فخرج جبلة بن الأيهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفيع صوته : يا معاشر العرب ليخرج اليّ رجل من ولد عمرو بن عامر لأخاطبه بما أرسلت به . فلما سمع الأمير أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه كلام جبلة بن الأيهم قال : قد بعث اليكم القوم بابناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا اليه رجلاً من الأنصار من ولد عمرو بن عامر ، فأسرع اليه بالخروج عُبادة بن الصامت الخزرجي ..... فقال له جبلة : يا ابن العم انما خرجت اليكم لأني أعلم أن أكثركم من الرحم والقرابة فخرجت اليكم ناصحاً ومشيراً ، واعلم أن هؤلاء القوم الذين نزلوا بازائكم معهم جنودٌ لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر وحصون وقلاع وأموال ... وإن هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجأ غير الموت ... وما قد نلتم نيلاً فخذوه وامضوا الى بلادكم سالمين .

ويجيب عُبادة بن الصامت : ... وانا يا جبلة أدعوك الى دين الاسلام وأن تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع علج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وأنت رجل من سادات العرب وملوكهم » .

وقد استطاع عبادة بن الصامت ادخال الرعب في روع جبلة ، فعاد هذا الى معسكر ماهان وعليه آثار الفزع والجزع ، فأخذ ماهان يهوّن عليه الأمر ويرغّبه في العطاء حتى دفعه وقومه الى خوض المعركة ، فقد قال له :

---

(١) ج ٢ ، ص : ٤٧

(٢) ج ١ ، ص : ٦ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ١٢٦

(٣) ج ١ ، ص : ١٢٦

(٤) ج ١ ، ص : ١٢٦ — ١٢٩

« ... فما هذا الفزع الذي أراه في وجهك وهم عرب مثلكم وأنتم عرب مثلهم وقد بلغني أنهم ثلاثون ألف فارس وأنتم ستون ألف فارس ... دونك يا جبلة فسر أنت وأبناء عمك من العرب المتنصرة الى قتالهم وأنا وراءكم ، فان ظفرتم بهم كان الملك مشتركاً بيننا وبينكم وتكون أقرب الناس الينا ويسلم اليكم ما فتحه العرب من بلاد الشام » .

والمسلمون أيضاً كانوا يتهيّبون خوض المعركة وقد هالهم كثرة جموع غسان واصرارها على مناصرة الروم . وقد تشاور المسلمون فيما هم فاعلون فقال لهم خالد بن الوليد : « اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى اكيدهم بمكيدة يهلكون بها » وأشار على أبي عبيدة أن يرسل لهم وفداً من أبناء عمومتهم الانصار ليثنوهم عن عزمهم . وخاطب خالد أفراد الوفد قائلاً : « يا أنصار الله تعالى ورسوله . هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم في النسب فاخرجوا اليهم وخاطبوهم واجتهدوا في ردهم عن حربكم وقتالكم ... »

فلما التقى الوفد بجبلة أخذ الطرفان يضربان على وتر « القرابة والرحم » وقد بدأ الانصار بأن عرضوا على جبلة اعتناق الدين الاسلامي ، فأجابهم : « ما أحب ذلك ولا غيره ، انني ضنين بديني ، وأنتم يا معاشر الأوس والخزرج رضيتم لأنفسكم أمراً ونحن رضينا لأنفسنا أمراً ، لكم دينكم ولنا ديننا » . حينئذ عرض عليه الأنصار التزام الحياد في الحرب القائمة : « إن كنت لا تحب ان تفارق دينك الذي أنت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة ، فان كانت لنا وأردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا ، وان أقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك ومواطن كثيرة لآبائك وأجدادك » .

ولم ينفع فيه الترغيب لأنه لم يكن واثقاً من تفوق المسلمين ويخشى نقمة الروم : « أخشى ان تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن أن يتقووا على بلدي ، لأن الروم لا ترضى مني الا أن أكون مقاتلاً لكم وقد رأسوني على جميع العرب » . ثم انتقل المسلمون الى الترهيب والتخويف ولكن جبلة أمعن في اصراره قائلاً : « وحق المسيح والصليب لا بد ان اقاتل عن الروم ولو كان لجميع الأهل والقرابة » .

وهكذا باءت بالفشل كل محاولة من الطرفين لاستغلال الرابطه القبلية ، وأظهر جبلة من ثم مضاءً وبلاءً في المعركة الدائرة حتى أنه قتل بسيفه عدداً من كبار المسلمين (١) .

(١) ج ١ ، ص : ١٦٢ .

وفي ديار بكر وأرض ربيعة ، أي في الجزيرة العليا المتاخمة لبلاد الكرد والأرمن ، وجد الفاتحون المسلمون قبائل عربية موالية للروم أيضاً ، ولكن انتصارات المسلمين المتعاقبة جعلت هؤلاء العرب أقرب إلى مداراة الظافرين وأسهل ارتداداً عن حربهم . ويتضح جلياً مما أورده الواقدي أن المجتمع العربي هنالك كان قائماً على البداوة كما هي الحال الى اليوم . يقول الواقدي عن حاكم المنطقة :

« ... وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بني تغلب وغيرهم ... واستدعى بأمرائهم ... وقال لهم : يا فتيان العرب لم نزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم ، وقد أبحنا لكم أرضنا ترعون في حزنها وسهلها . ونرضى منكم بما تؤدّون إلينا من أوباركم ، فأنتم آمنون ؛ وهؤلاء بنو عمكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ، ولم يكفهم ذلك حتى اقبلوا إلينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا ، وقد علمتم أن القوم إن ظفروا بكم لا يبقون عليكم ، ولا يرضون منكم إلا أن تدخلوا في دينهم أو تقاتلوا عن دينكم وأهلكم وأموالكم . فكونوا يداً واحدةً لا ينفصل منكم شيء كما كان جبلة بن الأيهم وآل غسان مع الملك هرقل ، فان نصرنا على القوم فالأرض لنا ولكم على السواء ، وإن كانت الأخرى فنموت على دين واحد ويبقى ذكرنا الى الأبد . قال : فأجابوه الى ذلك وتحالفوا وتعاقدوا ان يموتوا على سيف واحد ، فأعطاهم الأموال والسلاح ، وساروا معه »(١) .

وقد اجتمع على المسلمين في رأس العين ثلاثون ألف عربي من متنصرة الجزيرة وهم تغلب وهُبيرة وإياد(٢) ، ولكنهم سرعان ما اذعنوا واستجابوا لمناشدة المسلمين لهم . يقول الواقدي : « فأجابوه — يعني قائد المسلمين — بأجمعهم إلا إياد الشمطاء فانهم ارتحلوا الى بلاد الروم ، ووصل عرب بني تغلب الى جيش عياض بن غنم ، مسلمهم وكافرهم ، فرحّب بهم وطيّب قلوبهم »(٣) . ولم يلبث عمر بن الخطاب أن طالب الروم برد إياد من بيزانس ففعلوا(٤) .

واذا لم يُبدِ عرب الجزيرة مقاومة عنيفة في حرب المسلمين ، فان سكان المدن والأرياف السورية ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فقد تعاهدوا مع المسلمين وبذلوا لهم خير المعونات . فكلما كانت هنالك حاجة لخبير يدل المسلمين على مخاصر الطرق ويجنّبهم مراكز تجمّع

---

(١) ج ٢ ، ص : ٧٩
(٢) ج ٢ ، ص : ٧٣
(٣) ج ٢ ، ص : ٨٣
(٤) ج ٢ ، ص : ١٠٦ — ١٠٧

العدوّ وينصحهم بما يعود عليهم بالفوز والغنيمة فان المعاهدين السوريين يتقدمون لذلك عن طواعية (١) ، وحتى في ثنايا ارمينية وخوانقها التي يجهلها المسلمون كل الجهل ، يجدون هنالك معاهدين يأخذون بيدهم ويسيرون أمامهم . (٢)

وكم من مدينة سورية طرد أهلُها الروم وفتحوا أبوابها للمسلمين ! . ففي حلب اعتصم الحاكم في القلعة وخرج التجار والسوقة والشيوخ يطلبون الصلح من المسلمين (٣) . وسكان شيزر رغم فشو الرومية على ألسنتهم ، سلّموا مدينتهم لأبي عُبيدة قائلين : « أيها الأمير ! إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم » (٤) . وقال سكان حماة : « أيها الأمير ! نريد أن نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم أحبُّ إلينا » (٥) .

ويبدو أن سكان مصر لم يكونوا أقل تبرّماً بحكم الروم من السوريين ، فأهل أسنا وطنبدا استقبلوا المسلمين قائلين : « نحن قوم رعية وكنا مغلوبين على أمرنا ، فنحن أهل ذمتكم ورعيتكم قالوا : بشرط أن تدلونا على من هربوا اليكم ، فأجابوهم الى ذلك وصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون الدور والمساكن ويقبضون على الروم ويسلمونهم الى المسلمين ، وكان النصراني يقبض على الرومي ويأتي به الى المسلمين » (٦) .

موقف رجال الكهنوت

من المهم أن نعرف موقف رجال الدين المسيحيّ من الفتوحات الاسلامية . والواقديُّ يساعدنا على ذلك أحسن المساعدة .

والمعروف أن وصية أبي بكر الى جيش الفتح قد فرّقت في المعاملة بين الرهبان الذين انقطعوا الى العبادة في الصوامع وبين رجال الكنيسة ذوي المراتب الكهنوتية والصفة السياسية فالرهبان تركهم الفاتحون بسلام اذا لم يغادروا صوامعهم (٧) . أما رجال الدين الرسميون فقد اختلفت معاملة المسلمين لهم حسب موقفهم منهم .

---

(١) ج ١ ، ص : ٦٠ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٠٤
(٢) ج ٢ ، ص : ٤ ، ١٢٧
(٣) ج ١ ، ص : ١٩٦ — ٢٠٠
(٤) ج ١ ، ص : ١١٣
(٥) ج ١ ، ص : ٨٥
(٦) ج ٢ ، ص : ٢٠١
(٧) ج ١ ، ص : ٧٢ ، ٧٨ ، ١٣٩ - ١٤٠

ويلقي ضوءاً على هذا الموقف كونُ رجال الدين الرسميين مجبورين على مصانعة الحكام السياسيين ، ولا مندوحة لهم عن مرافقة الجيش البيزنطي والصلاة من أجله ومباركة قواده . بيد أنهم مضطرون أيضاً للنظر في مصلحة رعيتهم وتوخي سلامتهم ، ولذا كان موقفهم غاية في الحراجة ، فهم أبداً في طليعة الجيش المتأهب للحرب وعلى مقدمة الوفد المفاوض في الصلح .

وهذه بعض الأمثلة على ذلك :

١ — عندما وصل مندوب هرقل الى حمص : « خرجت القُسُس والرهبان واستقبلوه ، ودعوا له بالنصر »(١) .

٢ — في اليرموك : « أظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الانجيل ويترنّمون »(٢) .

٣ — لما دخل أبو عبيدة دمشق « سارت القُسُس والرهبان بين يديه ... وقد رفعوا الانجيل والمباخر بالندّ والعود »(٣) .

٤ — لما اقترب أبو عبيدة من حماة : « خرج أهلها إليه ومعهم الانجيل وقد رفعه الرهبان على أكفّهم والقُسُس أمام القوم يطلبون منه الصلح والذمام »(٤) .

٥ — في حمص : « اجتمع مشايخُ حمص ورؤساؤهم الى بيعتهم وتحدّثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص الى المسلمين ، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم الى أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه وصالحوه على تسليم المدينة اليه وأن يكونوا تحت ذمامه وأمانه »(٥) .

٦ — في القدس : يسلّم البترك المدينة لعمر بن الخطاب(٦) .

٧ — في الجزيرة : يهدّد البترك بالحرمان كل من يتخاذل أمام المسلمين(٧) .

تنازع الحكّام :

ويكشف لنا الواقديّ أيضاً ناحية خطيرة من نواحي وهن الأمبراطورية البيزنطية ، وهي

(١) ج ١ ، ص : ٢٢
(٢) ج ١ ، ص : ١٤٨
(٣) ج ١ ، ص : ٥٧
(٤) ج ١ ، ص : ٨٥
(٥) ج ١ ، ص : ١١٩
(٦) ج ١ ، ص : ١٨٩ — ١٩٠
(٧) ج ٢ ، ص : ١٠٤

فساد الجهاز الاداري وتنازع الولاة في المقاطعات وضعف ولائهم للحكومة المركزية . فهو يذكر أمثلةً عدةً عن حكام المدن والأقاليم الذين أعلنوا عصيانهم على بيزانس والتزموا جانب المسلمين عن إيثار خالص لهم أحياناً ، وعن طمع بمكافأتهم في غالب الأحيان .

وجديرٌ بالتنويه أن الواقديّ ينسب معرفة اللغة العربيـة لكثير من الأعيان البيزنطيين ، المدنيين منهم والعسكريين والكهنوتيين (١) . وعندما يسأل أحد المسلمين عن سرّ هذه المعرفة يُجاب : « أما علمت أن ملوك الروم والبطارقة لا يستقيم ملكهم إلا أن يتعلموا لسان العربية » (٢) . وهكذا نُفادُ بأن هرقل نفسه كان يخاطب العرب من غير ترجمان (٣) ، وأن بتركاً عظيماً ناقش أسيراً عربياً باللغة العربية وبحضرة هرقل (٤) .

ويروي لنا الواقديُّ حكاية البطريق روماس حاكم بصرى الذي كان يجالسه الروم لعلمه وحكمته ، وهو يتكلم العربية كأنه بدويّ ، وقد اعتنق الاسلام وشارك في الجهاد ، ولم يلبث أن توفي (٥) . وشبيهٌ به بطريق بعلبك الذي لم يتعلم العربية ولكنه مال الى العرب وأرغم سكان المدينة على مصالحتهم (٦) .

ونعلم أيضاً من الواقديّ أن المسلمين استطاعوا فتح أنطاكية بفضل تنازع رؤسائها وقوادها (٧) وأن جيشاً من سبعة آلاف روميّ انحاز الى المسلمين في الساحل السوريّ وساعد بذلك على فتح طرابلس وصور (٨) ، وأن البطريق يوقنّا — الذي حسُن إسلامه — كان له اليد الطولى في سيطرة المسلمين على فلسطين والجزيرة ومصر (٩) .

وقد أظهر الفاتحون المسلمون الشيء الكثير من اللباقة والكياسة في معاملة الحكام والقواد الذين دخلوا في طاعتهم وتمرّدوا على بيزانس . وهكذا نراهم يكافئونهم بإبقائهم في مناصبهم

---

(١) ج ١ ، ص : ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ١٤١ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ،
ج ٢ ، ص : ١٨٠ ، ١٩٤ ، ٢١٢

(٢) ج ١ ، ص : ٢٣٥

(٣) ج ١ ، ص : ٢٢٩

(٤) ج ١ ، ص : ٢٣٥ يستعمل الواقدي لفظ بترك للدلالة على البطريرك وكلمة بطريق للدلالة على Patrice

(٥) ج ١ ، ص : ١٨ — ٢١

(٦) ج ١ ، ص : ١٠٣ — ١٠٥

(٧) ج ١ ، ص : ٢٣٧

(٨) ج ٢ ، ص : ٢٠ — ٢٢

(٩) ج ٢ ، ص : ٢٠ ، ٢٧ ، ٥١ ، ٧٦

أو بتوليتهم مناصب أرفع ، وقد فعلوا ذلك في حرّان (١) ، ورأس العين (٢) ، وأرمينيا العليا (٣) ، وميّافارقين (٤) .

الخلاصة :

وها نحن أولاء قد عرضنا ما امتاز به كتاب فتوح الشام للواقديّ من إيراد للحوادث الجزئية ذات الدلالة الهامة ، وسرد لأقوال الغالبين والمغلوبين تتضح من خلاله نوايا الطرفين . أما حوادث الفتح نفسها وسردها حسب ترتيبها الزمنيّ فهذا ما لم نعرض له لتوافق الواقديّ غالباً في ذلك مع ما أورده غيره من مؤرخي الفتوحات والمغازي .

عزة النص

دمشق :



(١) ج ٢ ، ص : ٩٨
(٢) ج ٢ ، ص : ١٠٢
(٣) ج ٢ ، ص : ١١٦
(٤) ج ٢ ، ص : ١٢٢